ثنائيات اللغة وفق منهج سوسير

الثنائيات، التي رسمت ملامح الدرس اللسان، ويمكن اجمال تلكم الثنائيات في الآتي:

١- اللغة / الكلام : ميّز «وسير» بين اللغة والكلام، من حيث كون اللغة فضاء اجتماعياً

غير فردي، فهو مفروض على الفرد وخارج عن نطاق إرادته، ومفهوم اللغة يتّسم بالتجريد، إذ إنّ اللغة شكل لا مادّة، قوانين عامّةً مخزونةً في ذهن الجماعة اللغوية يكتسبها الفرد من الجماعة، فهي ((ظاهرة اجتماعية يمكن النظر اليها على أنها شيء منفصل عن صور استخدام الأفراد لها، ونحن نكتسب اللغة من أفراد المجتمع المحيطين بنا، وهم يلقوننا إياها، ونحن نتعلمها منهم، وليست بهذا الاعتبار من نتاجنا)) [١] بَيْدَ أنّ الكلام غير ذلك، فهو الاستعمال والتحقق الفعلي الفردي الأنظمة اللّغة، ما يَسِمُيه بحُرّيّة تُكسبه ديناميكيةً وتجدُّداً وتغيّراً وانفتاحاً، وهو ما يمنح الفرد حُرَيَةً أكبر في التعامل مع أنظمة النية، فيما ينطقه انفرد فعلا، وما يختاره من مفردات وتراكيب، ينتمي الى حيز الكلام، وعليه فاللغة على وفق ما تقدم ظاهرة اجتماعية في حين أن الكلام شأن فردي يرتبط بالمتكلم، وعليه يؤكد دي سوسير ((أن الفصل بين اللغة والكلام يعني أيضا الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو فردي)) [٢].

٢- التزامن التعاقب: لقد كان مفهوم القيمة الذي سبق أن تحدثنا عنه المعيار الذي ميّز دي سوسير بموجبه في الظاهرة اللغوية بين ثنائية التزامن والتعاقب، مع إعطاء الأولوية المعرفية للأولى، بحيث أصبح التزامن أو الأنية صفة مميزة تخرج بالدراسة اللغوية من دائرة اللسانيات التاريخية، وتميّزها منها، وغدا مصطلح التزامن ((علامة فارقة على تحوّل الفكر وانتقاله من الاحتكام إلى الماضي أو التاريخ، وجعله متيازا إلى الانتقال إلى الحاضر ومحاولة فهمه ودراسته، ولهذا فقد رأى كثير من الباحثين أنّ البنيوية في ارتكازها على مفهوم هذا المصطلح ردّت على الكبير على قواعد اللعبة وقوانينها، وكذلك الأمر في اللغة، ما يهمنا فيها هو الأنظمة الداخلية التي تتحكّم في قواعدها وليس الخارجية.

---

(١) مدخل إلى علم اللغة ٢٩٩.

(٢) علم اللغة العام ٣٢.

٣- المحوران الرأسي والأفقي، يحوي المحور الأول مجموعة الاستبدالات المعجمية والمصرفية، أي مجموعة من الكلمات والمفردات المتراصة عمودياً، وهو محور إيحائي، إذ تثيره مجموعة من التداعيات، كالتعالق أو الترادف أو التضادّ أو حتّى التشابه الصوتي بين المُفردات، بينما الآخر الأفقي»، تتعالق فيه المُفردات، وفيه يتم تركيب العبارات في جمل تُسهم في عملية التكم.

ويرتبط هذان المحوران بلونين من العلاقات ، سمّى دي سوسير الأولى منها العلاقات السنتاكميّة

أو بحسب المصطلح السوسيري (السياقية أوالتركيبية)، وهي علاقات حضورية تقوم على أساس وجود عنصرين أو أكثر في الوقت نفسه، ضمن سلسلة من العناصر الموجودة بالفعل، يقول دي سوسير: ((تكتسب الكلمات في الحديث علاقات تعتمد من جهة الطبيعة الخطية لغة؛ مرتبطة بعضها ببعض، وهذه الحقيقة تحول دون النطق بعنصرين في آن واحد... إنّ هذه العناصر مرتبطة بصورة متعاقبة في سلسلة الكلام، فالربط الخطي ينتج عنه السنتاكم syntagm، ويتألف السنتاكم من وحدتين متعاقبتين أو أكثر، ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكم؛ لأنّه يتقابل مع كل ما يسبقه، أو يأتي بعده، أو معهما في آن واحد)) [٣]
أما العلاقات الايحائية؛ فهي علاقات تجمع بين عدد من العناصر التي تشترك بأمر ما بصورة غيابية، وتكون خارج الحديث، ومجالها الذاكرة، فيي ((تختلف عن الصنف المذكور آنفًا، فالكلمات التي تشترك في أمر ما ترتبط معا في الذاكرة، وتتألّف منها مجموعات تتميز بعلاقات متنوعة، فعلى سبيل المثال، توحي الكلمة الفرنسية enseignement (تعليم) بصورة لا شعورية بعدد كبير من الكلمات، مثل: (enseigner ، يعلم renseigner يتعرّف على، أو توحي بالألفاظ anenrent= تسليح، وchangement تعديل، أو education تربية وتعليم ...

جميع هذه الكلمات ترتبط بعضها ببعض بطريقة ما، ونلاحظ أنّ الارتباط الذي يتألّف خارج الحديث يختلف كثيرا عن ذلك الذي يتكون داخل الحديث، فالارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب الخطي، ويكون مكانها الدماغ، فهي

---

(٣) علم اللغة العام ١٤٢ وينظر : أثر محاضرات دي سوير ٢٩ ، والتفكير اللغوي ٢٤٤، والمعنى وظلال المعنى ٥٨.

جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يمتلكها كل متكلم، وتُسمّى هذه العلاقات بالعلاقات الايحائية)) [٤].

- الدال/ المدلول: وهما طرفا العلامة اللغوية لديه، والدال هو الصورة الصوتية السمعية المُكوّنة من مجموعة من الأصوات التي تثير لدى المستمع تصوّراً نفسياً ما، هذا التصوّر النفسي الذهني الذي يُحيل إليه الدال و المدلول، فالمدلول تصوّرَ ذهني يملكه الفرد عن الواقع الخارجي، و «سوسير» بذلك يُقصي عن المدلول كونه شيئاً مادّيّاً خارجيا محسوساً، أو - بمعنى أكثر وضوحاً.

- أقصى المرجع الخارجي عن العلامة اللغوية، ما وَسَمَها بالانغلاق على الداخل والانطواء عليه، الأمر الذي أثر بشكل ملحوظ - في ما بعد - على الدرس الأدبي النبوي، الذي أقصى المرجع الخارجي في دراسة الأدب، وانغلق على درس النص دراسة بنيوية داخلية، بعيداً عن السياقات الخارجية التي تمس النص أو المُؤلّف.

ومن مميزات شقي العلامة السوسيرية أن طرفيها الدال والمدلول ، لا علاقة طبيعية بينهما ، أي إن العلاقة بينهما علاقة اعتباطية ، لا مناسبة طبيعية بينهما ، ما عدا اشياء قليلة ، كالمحاكيات للطبيعة وأصوات التعجب ، ومما يدلل على اعتباطية العلاقة بينهما اختلاف اللغات في الدوال مع اتحاد المشار اليه غير ان تلك الاعتباطية تحولت الى علاقة عرفية ، بفعل التعارف فأصبحت العلاقة وثقى بين الدوال ومدلولاتها ، ومن زاويةٍ أخرى تسمت علاقة الدال بالمدلول بالترابط ، لتجعلها كوجهي الورقة لا ينفصلان .

وشكلت طروحات سوسير عن العلامة اللغوية منطلقا مهما لكثير من الدراسات التاليه له ، خاصة السيميولوجية (علم العلامات) ، وهو العلم الذي تدخل اللسانيات تحته ، فقد عدَّ دي سوسير اللسانيات جزءاً من علم أعم هو علم العلامات ، وهو علم بهتم بدراسة حياة العلامات على اختلاف تجلياتها مثل نظام الأزياء والعلامات المرورية وغيرهما كثير ، وتعد اللغة واحدة من أنظمة العلامات المهمة .وغيرهما كثير ، وتعد اللغة واحدة من أنظمة العلامات المهمة .

---

(٤) علم اللغة العام ١٤٢ ، وينظر: السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد ٣٥، وأثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة ٢٩، واتجاهات الشعرية ٢٧.